السيد رشـــيد رضا

بمناسبة الذكرى التاسعة لوفاته

للأستاذ محمود أبو ريه

مما يبعث السرور إلى النفس أن نرى من الناس وفاء للمصلحين واحتفاء بذكرى العاملين ، ذلك بأن هذا الوفاء الذى هو أسنى خلال الإنسانية ، إنما يدل ولا جرم ، على أن العقول والأفكار ، قد استعدت لقبول آراء هؤلاء المصلحين وتعاليمهم ، وأن النفوس قد استعدت للأخذ بها واتباع ما تدعوا إليه ...

وإن مما يغتبط له المرء حقاً أن لا تمر الذكرى التاسعة والثلاثون لوفاة الأستاذ الإمام محمد عبده هذا العام كما مرت من قبل فى سكون ونسيان ، بل رأينا الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية . قد هبت كلها للاشادة بها والإفاضة فى بيان فضل صاحبها

ومما زاد فى اغتباطنا أن سمعنا لأول مرة فى حياتنا صوت الأزهر ينبعث فى هذه الذكرى الكريمة بعد أن ظل صامتاً طوال أربعين عاماً ، واضعاً أصابعه فى آذانه ، حتى لا يسمع له نصحاً ولا يتبع له رأياً ، مما يجعلنا نستبشر بأن هذه البيئة التى تنكرت لمصلحها العظيم فى حياته ، وازورت عنه بعد وفاته ، قد أخذت تدنو من تعاليمه لتدرسها وتنتفع بها ، وأن من كان فيها من الشيوخ الجامدين والخرافيين ، ومن على شاكلتهم فى غيرها من الحشويين والمعوقين ، أولئك الذين تخلفوا عن قافلة الحياة بأفكارهم السقيمة وآرائهم العقيمة ، وكانوا عقبة فى سبيل كل إصلاح قد قضى عليهم ولم يبق لهم ولا لآرائهم بين الناس أثر .

لم يجد الأستاذ الإمام فى حياته من التنكر له والمكر به والإعراض عنه مثل ما وجد فى الأزهر ، ذلك بأنه ما كاد يظهر بما يريد من خير لهذا المعهد الكبير ، حتى هب منه فى وجهه فئتان تعارضانه وتصدان عن سبيله : الفقهاء الجامدون ، والشيوخ الخرافيون وقد دسوا فى رؤوسهم تعويذتين لتحفظانهم من (عين) الإصلاح

أولاهما : هذا أمر لم تجربه العادة !

والأخرى : الجمهور على غير ذلك !

أما الفقهاء ؛ فإنهم قد أبوا إلا أن يظلوا على ما وجدوا عليه شيوخهم ، فلا يدرسون إلا كتبهم ، ولا يتبعون إلا أقوالهم ، حتى لقد بلغ الأمر بأحد كبارهم أن يجار فى مجلس إدارة الأزهر الذى يجمع أمثاله بهذه الكلمة الأثيمة ! «لا يجوز لمسلم أن يأخذ بالحديث ، والواجب أن يؤخذ بكلام الفقهاء ، ومن ترك كلام فقهاء مذهبه للأخذ بحديث مخالف فهو زنديق » !

ومن إمعانهم فى هذا الجمود أن الأستاذ الإمام كان قد رغب إلى الشيخ الإنبابى ، وكان شيخاً للأزهر أن يقرر تدريس مقدمة ابن خلدون بعد أن بين له فضلها ؛ فقال له الشيخ : هذا أمر لم تجربه العادة !

ولما طالب رضى الله عنه بإدخال علمي الحساب والهندسة فى الأزهر عارض شيوخه فى ذلك ، وكانت حجتهم التى (تعوذوا) بها « أن الجمهور على أن هذين العلمين يفسدان العقل ويضيعان الاستعداد لفهم علوم الدين وينبغى عدم تدريسهما » !

ولقد كان لدرس الأدب فى الأزهر ثورة عنيفة ندع الحديث عنها لصاحب « الرسالة » فهو أحق به منا إذ كان من الذين شهدوا هذه الثورة ، ومسهم قرح منها !

وأما الخرافيون . فبحسبك أن تعرف أن كبار شيوخ الأزهر كانوا يحتفلون فى كل عام بمولد الإمام الشافعى ، وكان لهم فيه عادة اسمها (الكنسة) ذلك أنهم كانوا جميعاً يتولون كنس ضريح دفينه الشافعى ، ثم يقسمون هذه (الكناسة) بينهم ليتبركوا بها ! ثم ينقلون العمامة الوهمية الموضوعة فوق القبر من رأس شيخ إلى رأس شيخ آخر ليقتبسوا من أسرارها[1]

ولعل قراء « الرسالة » لم ينسوا تلك القصيدة التى رفعها أحد المفتين إلى السيد البدوى يشكو فيها شيخ الأزهر ويطلب من (غوث الورى) أن ينتقم له منه !

(١) من أراد أن يقف على ما كان يجرى فى هذ (المولد) فليرجع إلى جريدة مصباح الشرق الصادرة فى شهر شعبان سنة ١٣١٥ أو فليقرأ القصيدة الرائعة التى نشرها الشيخ الشنقيطى الكبير فى كتابه الحماسة السنية

وقد ظلت الحرب بين الأزهر وإمامه مستمرة طول حياته . وقد مات رضى الله عنه وهو لا يخشى على الدين أحداً غير شيوخ الأزهر . وفى مرض موته قال أبياتاً جاء فيها :

ولست أبالى أن يقال محمد أبلّ أم اكتظت عليه المآتم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم

هذا ما كان عليه الأزهر من قبل ؛ فإذا ارتفعت منه اليوم أصوات تشيد بذكرى الأستاذ الإمام ، وتستعلى بفضله بين الأنام ، فتلك آية كبرى على أن البيئة الأزهرية قد أصبحت على غير ما كانت فيه بالأمس ، وأنها قد خرجت إلى النور بعد أن كانت من قبل فى الرمس .

وعلى أننا قد اغتبطنا بهذا المظهر الجديد الذى بدا فى الأزهر فإنا قد لاحظنا أن كل الذين احتفوا بذكرى الأستاذ الإمام قد أهملوا ذكر العلامة المحقق السيد رشيد رضا رحمه الله ، أكبر تلاميذ الإمام فى حياته ، وحامل رسالته وناشر علمه بعد وفاته ، وما كان يصح لهم ، وقد دفعهم الحق والوفاء إلى الاحتفاء بذكرى الأستاذ الإمام أن يدعوا إلى العناية بذكرى العلامة الجليل ولا أن ينكروا فضله

وإنا أداء لحق هذا الرجل العظيم الذى لقى من عدم وفاء المسلمين له ما لقى ، والذى لم يجد أحداً يعنى بتراثه أو يحمل رسالته بعد مماته ، ننتهز فرصة انقضاء العام التاسع على وفاته لننشر عنه هذه الكلمة القصيرة ، ولعلنا نكون قد أدينا بها هذا الفرض الكفائى الذى يلزم المسلمين جميعاً

على أننا لا نحاول اليوم أن نتحدث عن علمه الواسع وفضله الشامل ، ولا نفيض فى بيان جهاده حوالى أربعين سنة فى سبيل دينه ، قائماً وحده بهذا الجهاد لا يفتر ولا ينى ، لا تؤيده حكومة ولا يسنده منصب ، لأن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه .

وإنا نجتزئ بلمحات تدل على صلته بالأستاذ الإمام ومكانه منه ، ونشير إلى بعض ما عمل لتأييد دعوة الحكيمين جمال الدين ومحمد عبده ، ونشرها بين أرجاء الأرض . ولكى لا يرمينا أحد بالغلو فى القول أو الإسراف فى الحديث ؛ فقد آثرنا أن نرجع فى ذلك إلى قول الأستاذ الإمام نفسه فى تلميذه ، فنتناول منه قبساً ، ونروح إلى ما كتب بعض المستشرقين عن دعوة الإمام فننقل عنه ذرواً

فمن قول الأستاذ الإمام لبعض أصحابه ، وكانوا يريدون منه أن يُقصى عنه السيد رشيد : « إن الله بعث لى بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتى ومزيداً فى عمرى ، إن فى نفسى أموراً كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة ، وقد ابتليت بما شغلنى عنها ، وهو يقوم ببيانها كما أعتقد وأريد ... وقد رأيت فى سفرى من آثار عمله وتأثير مناره مالم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد أنشأ لى أحزاباً وأوجد لى تلاميذ وأصحاباً ... الخ . » ، وقال المغفور له الشيخ محمد شاكر عندما أبلغه إرادة الخديو عباس فى أن يبعده عنه : « كيف أرضى بإبعاد صاحب المنار عنى وهو ترجمان أفكارى » ، وكذلك قال لبطرس غالى باشا

وقال الدكتور تشارلز آدمس فى كتابه الإسلام والتجديد : « كان السيد رشيد أكبر تلاميذ الإمام فى حياته ، ومؤرخ سيرته بعد وفاته ، وهو الذى نشر كتبه وفسر تعاليمه ، وكان من أشد الناس أخذاً بها وسيراً على سننها »

وقال : وإن كتاباته لتنم على أنه أخذ بحظ عظيم فى العلوم الإسلامية المعروفة وجد فى نشره لمصنفات أستاذه ، وفيما كتبه عليها من الحواشى والتعليقات ما يدل على تمكنه من المواضيع التى يتناولها ، وأعظم ما تبدو كفايته فى علوم الحديث ، وكان لا بد من أن يبرز رشيد فى هذا الميدان ، وذلك لأن الحركة التى أنشأها الشيخ محمد عبده علقت أهمية كبرى على السنة الصحيحة وحدها لتكون مصدراً أساسياً من مصادر الإسلام فى صورته الجديدة »

ثم تحدث عن إنشاء مجلة المنار فقال : « وكانت غاية رشيد من إنشاء المنار مواصلة السير على نهج العروة الوثقى[1] . وكان الغرض الذى رمى إليه المنار هو فى الجملة عين ما عملت له صحيفة العروة الوثقى ، فقد كان من الأغراض التى تضمنتها غايتهما الكبرى نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، وإقامة الحجة على أن الإسلام باعتباره نظاماً دينياً لا يتنافر مع الظروف الحاضرة ، وأن الشريعة أداة عملية صالحة للحكم ، وكان من أغراضهما أيضاً السعى فى القضاء على الخرافات والاعتقادات

(١) هى الجريدة التى أنشأها الحكيمان جمال الدين ومحمد عبده بباريس لينشرا فيها دعوتهما لايقاظ الشرق ولم يصدر منها إلا ثمانية عشر عدداً ثم صادرها الاستعمار